دراسات ما بعد الاستعمار بعد أربعة عقود من الزّمان (نقد وتقييم)

LES ETUDES POSTCOLONIALES APRES QUATRE DECENNIES (CRITIQUE ET EVALUATION)

أ. ياسين كريم♥

تاريخ الاستلام: 2-06-2019 تاريخ القبـول: 20-07-2020

الملخّص: تعتبر دراسات ما بعد الكولونياليّة من المصطلحات الشّائعة في حقل الدّراسات الثّقافيّة، وفيها من الشّموليّة والاتساع ما يجعلها تستخدم في أكثر من مجال، كما ترجع أهميتها إلى كونها تسعى إلى رسم الحدود النّظريّة التي تفضي بنا إلى فهم وتحليل ما أنتجته الثّقافة الغربيّة باعتبارها خطابا مقصديا يحمل في طياته توجهات استعماريّة إزاء الشّعوب التي تقع خارج المنظومة الغربيّة. انطلاقا من ذلك، تتبع هذه الورقة البحثيّة مسار تشكل دراسات ما بعد الاستعمار مع الآباء المؤسّسين لهذا الفكر بدءا بالفيلسوف الإيطالي "أنطونيو غرامشي" أحد أبرز مناهضي الهيمنة الغربيّة، مرورا بـ "فرانتز فانون" الطّبيب المارتنيكي الذي حلل بعمق آثار العنف الاستعماري المولّد للاضطرابات النّفسيّة، وصولا إلى "إدوارد سعيد" أحد أكبر نقاد الرّواية الكولونياليّة الغربيّة، لننتقل بعدها إلى استعراض الصّعوبات التي تواجه نقاد ما بعد الاستعمار في سبيل رسمهم لحدود واضحة لهذا الحقل كونه حديث النّشأة نسبيا. أمّا الجزء الأخير ــ من الدّراسة ــ فيتولى مهمّة نقد وتقييم هذه الدّراسات والوقوف عند العوائق النّظريّة والعمليّة التي تواجهها في سبيل الوصول إلى نظريّة نقديّة متكاملة.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار؛ الاستقلال؛ الهويّة؛ ما بعد الحداثة؛ التّمثيل.

♥جامعة محمّد الأمين دباغين، سطيف 2، الجزائر، البريد الإلكتروني: krim19yacinegmail.com (المؤلّف المرسل).

Résumé : Les études postcoloniales est un terme courant dans le domaine des études culturelles, leur exhaustivité et envergure leur permettent d'être applicables dans plusieurs champs intellectuels. Leur importance réside dans le fait qu'elles cherchent à délimiter les frontières théoriques qui nous permettent de comprendre et d'analyser notamment la production de la culture occidentale, compte tenu de ses objectifs ayant des tendances coloniales à l'égard des peuples extérieurs à la sphère occidentale .De ce fait, cet article se propose de suivre la question de passer en revue les difficultés rencontrées par les critiques postcoloniaux afin de dessiner des frontières intelligibles à ce domaine qui est relativement naissant. La partie finale de cette étude est consacrée à l'évaluation et la critique de ces études postcoloniales et d'examiner, surtout, les obstacles théoriques et pratiques auxquels elles sont confrontées afin de construire une théorie critique globale.

MotsClés : Colonialisme ; Independence ; Identité ; Postmodernisme; Représentation.

مقدّمة: لقد كانت الدّعاوى التي أسس لها رواد فكر ما بعد الحداثة إيذانًا بميلاد عصر جديد؛ أو هو فصل بين لحظتين زمنيتين لم يبق ما يسوغ الاتصال بينهما ففي الوقت الذي دعت فيه الحداثة إلى العقلانيّة والأخلاق.. جاءت ما بعد الحداثة لتنقض كل تلك المبادئ، باعتبارها مغامرة جديدة لم تنفك من ربق الخضوع للفكر الأحادي وتعلن بجرأة القطيعة مع ما سبق، تحطم الأنساق التي أبانت عن عجزها، إنّه عصر نهاية الحكايات الكبرى واسترداد للإنسان من سجن الذّات/الأنا، بعدما كان سجين الكنيسة/اللاهوت لقرون طويلة، إنّه وعد بميلاد عصر السّرديات الصّغيرة التي تشرح التّطبيقات الجزئيّة، والأحداث المحليّة باعتبارها ظرفيّة ومؤقتة وطارئة، لا تدعي الشّموليّة، والحقيقة المطلقة، والمعقوليّة والاستقرار. هدفها من كل ذلك تقويض الفلسفة الغربيّة وتعريّة المؤسّسات الرّأسماليّة التي تتحكم في العالم وتحتكر وسائل الإنتاج وتمتلك زمام المعرفة العلميّة وتوجهها، كل ذلك عبر آليات التّشكيك والتّشتيت والتّفكيك. لقد جعلت هذه الأفكار الما بعد حداثيين يرفضون فكرة المركز؛ الجهة التي

تملك ادعاء الحقيقة وشرعيتها، إذ لا مركزيّة في نظرهم فكل شيء نسبيٌّ قابل للتّشكيك، إلاّ الفكرة الأساسيّة التي تقوم عليها ما بعد الحداثة وهي اللاتعيين.

1. من ما بعد الحداثة إلى ما بعد الاستعمار..اتصال أم انفصال؟

لقد نشأ خطاب ما بعد الاستعمار ضمن ذلك المناخ الفكري المتوتر الذي سادته الدّعوة إلى أفول أفكار الحداثة وترسيم الدّعوة إلى فكر "الما بعديات"، المتجاوز لذلك النّسق المغلق من الأفكار والذي أبان عن عجزه في تقديم رؤيّة متكاملة للوجود ممّا أوصل الحضارة الغربيّة إلى أفق مسدود، ترجمه بجلاء تلك الحروب الكونيّة التي كادت أن تعصف بالوجود البشري في بعض مراحله، أضف إلى ذلك تشيؤ الفرد الأوروبي وبروز النّزعة الماديّة السّافرة التي أصبحت تتملكه، فكانت هذه المنزلقات من جملة ما أعطى مشروعيّة النّقد والتّجاوز لتلك الأفكار والتي كانت إيذانا وتبشيرا بفكر "الما بعد"، الذي كانت دراسات ما بعد الاستعمار أحد تجلياته. وفي سبيل توصيف العلاقة التي قد انتهى إليها النّقّاد والدّارسون في إطار رسمهم لحدود واضحة بين هذين الحقلين؛ باعتبار ما بعد الاستعماريّة هي ابنة ما بعد الحداثة كما تسميها النّاقدة آنيا لومبا –ينقسم النّقاد –في ذلك –إلى اتجاهين رئيسيين هما: يرى الاتجاه الأوّل أنّ ما بعد الحداثة محصلة تاريخيّة أوروبيّة غربيّة مموضعا إياها ضمن الجغرافيا الفكريّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة الفرنسيّة/الغربيّة، كما يوضح ذلك كل من: "تيري ايجلتون"، و"كريستوفر نوريس"، و"هارولد بلوم"، و"يورغن هابرماس" على ما بينهم من تمايزات؛ ونقصد به الثّورة داخل التّراثات الفكريّة "الغربيّة" من خلال التّفكير حول بعض المواضيع المماثلة؛ اللغة وكيف تعبر عن التّجربة؟ كيف تعمل الإيديولوجيات؟، كيف تتشكل الذّوات الإنسانيّة؟، وماذا يمكننا أن نقصد بالثّقافة؟"[1]. وهنا تكون ما بعد البنيويّة ــ باعتبارها تيارا في فكر ما بعد الحداثة ــ هي الرّافد الأساسي لدراسات ما بعد الاستعمار؛ باعتبار هذه الأخيرة كما يؤكد عليه "بارت مورت جيلبرت" عملا شكله انتماءات منهجيّة تنتسب إلى النّظريّة الفرنسيّة العليا، لا سيما كل من "جاك دريدا" و"جاك لاكان" و"ميشال فوكو"؛ ويعني هذا تسلل النّظريّة الفرنسيّة العليا إلى تحليلات ما بعد الاستعمار الذي ولّد أكثر المناقشات الرّاهنة سخونة وإثارة للتطرف إما قبولا أو رفضا[2]، إذا لا نعدم أن نجد مثلا بعض التّقاطعات

بين ما قدّمه "جاك دريدا" في استراتيجيّة التّفكيك وبين ما قام به "إدوارد سعيد"، أحد المؤسسين الفعليين لدراسات ما بعد الاستعمار، حين اعتمد على التّفكيك في قراءة النّصوص التي تشكل حجر الزّاويّة في قراءة الآخر بغيّة إخضاعه والسّيطرة عليه وقد قام بدراسة جينيالوجيّة للمؤلفات الغربيّة حول الشّرق منذ القرن الثّامن عشر والتي أدت حسب ــ سعيد ــ إلى وضع الإطار النّظري للاستعمار. أمّا الاتجاه الثّاني أنّ الثّورات التّحريريّة ضد الاستعمار الكلاسيكي، وضد الاستعمار الجديد، لعبت دورا تكوينيا في بلورة فكر ما بعد الحداثة ومن أقطاب هذا التيار: النّاقد الإنكليزي "روبيرت يونغ" في كتابه" أساطير بيضاء" الذي يعتبر أنّ أفكار ما بعد الحداثة، وما بعد البنيويّة على وجه الخصوص، أوحت بها الثّورة الجزائريّة لهؤلاء المفكرين[3] وهو الرّأي الذي يتشارك فيه "فريدريك جيمسون"، و"جورج فندل أبيل"، و"توماس بايفل" ولكن أحدا منهم لم يدرس عناصر وآليات هذا الدّور التّكويني[4]؛ وهو اتجاه ينحو إلى فكفكة الاستعمار ذاته؛ المثقّفون والنّشطاء الذين حاربوا ضد الحكم الاستعماري وحلفائهم الذين يشاركون الآن في إرثه المستمر، تحدوا ونقّحوا التّعاريف المهيمنة للعرق والثّقافة واللغة والطّبقة في سبيل جعل أصواتهم مسموعة. هناك إذن علاقة جدليّة وطيدة، وتشعبا كبيرا بين هذين الحقلين، لا يمكن الفصل بينهما فصلا تاما؛ فالمتأمل لدراسات ما بعد الاستعمار يستطيع إدراجها ضمن النّظريات الفلسفيّة النّقديّة الحديثة التي تدور رحاها بشكل وثيق في إطار الفلسفة السّياسيّة، وتعد تطورا طبيعيا وضروريا لفلسفات ما بعد الحداثة والتّفكيك وقد جعلت جل اهتمامها وآلياتها المنهجيّة والمعرفيّة في تقويض خطاب المركزيّة الغربيّة بكل أبعاده السّلطويّة والاستبداديّة خاصّة في حقل الممارسات السّياسيّة والاقتصاديّة سواء كان ذلك على مستوى الفكر أم مستوى الفعل[5]. إنّ الحركات المناهضة للاستعمار العسكري هي التي نبّهت منظري ما بعد الحداثة إلى المزالق الكبرى للحداثة وبالتّالي الدّعوة إلى تجاوزها أو تصحيح مسارها هذا ما جعل فلسفاتهم الجديدة تقوم على نقد هذا الوجه الجشع في الحضارة الغربيّة والتي تمثله الكولونياليّة، وهي أفكار تتقاطع في كثير من الأحيان مع ما يدعو إليه نقاد حركات ما بعد الاستعمار، بل أصبحت ما بعد الاستعماريّة تتجرأ على طرح الأسئلة الفلسفيّة الكبرى وتحاول تفكيك الأيديولوجيات الطّاغيّة، لذلك فهي

التي نظرت للمجتمع الغربي في سبيل إعادة توجيه مساره، وأسّست لمساءلة رصينة للحداثة التي قادت العقل الأوروبي إلى أزمة خصوصا في تعامله مع الآخر. وهو ما أشار إليه النّاقد الإنكليزي "روبيرت يونغ" حين يجزم بأن نظريّة ما بعد البنيويّة، وهي تيار داخل فكر ما بعد الحداثة ليس نتاجا لتحولات المجتمع الفرنسي أو المجتمعات الغربيّة على نحو مغلق؛ إنّما هي عرض ونتيجة للثورة التّحريريّة الجزائريّة؛ فالثّورة الجزائريّة هي التي ذكرت فرنسا بأخطائها اتجاه الآخر وبفشلها الذّريع في طرح النّموذج الغربي الذي يقدّم على أنّه الطّريق الأمثل في الحياة، ولا أدل على ذلك من تلك الحروب الكونيّة التي شهدتها أقطار عديدة في العالم باسم الحداثة؛ ما جعل مفكرين فرنسيين بارزين[6] يتجهون إلى الإقرار بالأخطاء الجسيمة التي ارتكبها المستعمِر في حق الشّعوب المستعمَرة، وهو نفس ما يتشارك فيه المفكر الجزائري "عمر أزراج" حين استخلص جزئيا أنّ أفكار ما بعد الحداثة تقوم على فكرة الإحساس بالذّنب على المستوى الأخلاقي ونقده لذاته ومراجعته التّفكيكيّة لمشروع التّنوير والحداثة[7]، ومكن هذه الأخطاء يتجه صوب الشّعوب الغير أوروبيّة وما خلفه المستعمر من أخطاء جسيمة في محاولته لطمس هوياتها وكسر مقاوماتها الحضاريّة.

2. الآباء المؤسّسين لدراسات ما بعد الاستعمار: لم تتّضح دراسات ما بعد الاستعمار كنظريّة واضحة المعالم إلا في حدود السّتينيات والسّبعينيات من القرن الماضي، مع النّاقد الفلسطيني "إدوارد سعيد" في كتابيه: "الاستشراق" و"الثّقافة والإمبرياليّة"، لكن هذا لا ينفي أن نغمط تلك الجهود التّأسيسيّة لهذا الحقل قبل "إدوارد سعيد"، والتي كانت في مجملها خطابات مقاومة ومناهضة ضمن شقين: الأوّل مقاومة الاستعمار العسكري والثّقافي الذي مس أقطارا واسعة من قارتي أفريقيا وآسيا يمثله "فرانز فانون"، كنموذج لذلك. أمّا الثّاني فقد أسّس لنقد الهيمنة الغربيّة في نموذجها الرّأسمالي المتوحش وهو ما يمثّله مفكرون مثل "أنطونيو غرامشي" (Antonio Gramci) وغيره وهي ثورات داخل التّراثات الفكريّة الغربيّة ذاتها، هذه الأصوات التي كانت تسعى دائما إلى تحقيق الاستقلال والظّفر بالسّيادة الكليّة على كافة الأقاليم المستعمرة عسكريا، لهذا تركز جهود هؤلاء المفكرين في تصفيّة كل بقايا الاستعمار وكشف كل أشكال الامبرياليّة التي تنتجها المركزيّة الغربيّة قصد الاستغلال

والسّيطرة. تعود الجهود التّأسيسيّة لهذا الحقل إلى المفكّر الإيطالي "أنطونيو غرامشي"، الذي كانت أفكاره الممهّد الرّئيس لنقد الخطاب الاستعماري، انطلاقا من كتابه: "مذكّرات السّجن" (The preson notebooks)" ففي هذه المرحلة أسّس "غرامشي" لقطيعة مع الطّروحات اليساريّة التي تتعامل بمنطق حتمي جامد مع المجتمع، وقد تحدّث "غرامشي" عن مجموعة من المفاهيم التي تصب ضمن خانة نقد الهيمنة الغربيّة من أبرزها: دور المثقف؛ حيث تحدث عن الفروقات الجوهريّة بين المثقف التّقليدي والمثقف العضوي؛ فالبشر كما يرى "غرامشي" كلّهم مثقّفون بمعنى من المعاني ولكنهم لا يملكون الوظيفة الاجتماعيّة للمثقفين، وهي وظيفة لا يمتلكها إلاّ أصحاب الكفاءات الفكريّة العاليّة الذين يمكنهم التّأثير في النّاس[8]؛ أي هم أولئك الذين أُعطوا مقدرة خاصّة في التّأثير على عقول النّاس واستمالة عواطفهم، وأُعطيت لهم من الفرص ما سمحت لهم باعتلاء مراكز يكونون من خلالها المُمثلين لأصوات المضطهدين دون زيغ عن أداء هذه الرّسالة، وهو دور محوري يتم عبر دخول المثقّف في حرب ضروس ضد الدّجل السّياسي الاستعماري، الذي ما ينفك محاولا استمالتّه خدمة لمشاريعه، فانطلاقا من هذا، يجب على المفكّر أن يتحرّك خارج هذا الإطار المركزي/الغربي، ويعمل على تفكيكه وكشف النّوايا المضمرة داخله.

على خُطى "غرامشي" انبرى الأديب المارتينيكي "فرانتز فانون"(Frantz Fanon) في العمل على التّخلص من كل آثار التّبعيّة الفكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة الذي أصبح واقعا فرضته القوى المستعمِرة، ولا يتأتى ذلك –حسب فانون –إلاّ بالدّخول ضمن حركات سياسيّة ثقافيّة تأخذ على عاتقها مهمة التّنوير وإعادة بعث المقومات الفكريّة والحضاريّة لهذه الأمم، ويأتي كتاب "فانون" "معذبو الأرض" (les Damnes De La Terre) سنة 1961م، في هذا الوقت الحاسم من تاريخ بعض الشّعوب المستعمَرة، كمرتكز عملي تدفع بهذه الجماعات إلى تحقيق هويتها واستعمال جميع الوسائل بما فيها العسكريّة لتحقيق ذلك باعتبار الاستقلال كما يرى فانون حدث عنيف دائما. وتكفي نظرة شموليّة لأطروحات هذا المفكر لتبرز لنا القضايا الرّئيسة التي اشتغل عليها وجعلها من أولوياته في البحث، منها أنّ الاستعمار لا يقتصر على الحكم العسكري الذي يمارس صلاحيته بالقوة فقط، بل هو هيمنة ثقافيّة واقتصاديّة

تهدف إلى إلحاق المستعمَر بالمستعمر، وبسط السّيطرة عليه، وطمس هويته وإلحاقه بالمركز سياسيا، ثقافيا واقتصاديا، وهو الثّقاتة مبكرة من فانون إلى الوجه الثّقافي المخاتل للاستعمار الذي طغى عليه الجانب العسكري المسلح ويدعو "فانون" إلى شرعنة الفعل المسلح لمقاومة الاستعمار، ويشدد على ضرورة خلق هويّة وطنيّة مضادة تؤسّس للتخلص من ذيول الاستعمار بكل أشكاله[9]. من جهة أخرى فإن جِدّة الطّرح "الفانوني" تكمن في تجاوزه لمقاربة الاستعمار من وجهة ثقافيّة وسياسيّة محضة، بل تعدّاه إلى دراسة نتائج العنف المولد للاضطرابات العقليّة العصبيّة على الشّعوب المستعمرة، وذلك نتيجة لطبيعة عمله كطبيب للأمراض النّفسيّة والعصبيّة. هذا دون أن يغفل "فانون" على مبدأ الهويّة باعتباره السّبيل الأمثل لفهم كل ما هو دخيل؛ إذ هو الضّامن لفهم الخطاب المختلف عنا أوّلا، ثم الرّد عليه وفق ما تقتضيه طبيعة العلاقة التي تربطنا بالآخر. كما يعد "فانون" من المتأثرين بأفكار أستاذه المارتينيكي "ايميه سيزار" الذي كان لفكره الأثر البالغ على مناهضي الاستعمار.

كما أنّ أفكار "فرانتز فانون" اعتبرت ــ هي الأخرى ــ مرجعا رئيسا لبعض نقاد ما بعد الاستعمار، خاصّة للمفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" (Edward Said) الذي يُعتبر كتابه: "الاستشراق" (Orientalism) من المؤسّسين الفِعليّين لدراسات ما بعد الكولونياليّة، فالاستشراق هو تلك الدّراسة العلميّة التي نشرت عام 1978م وتُعدّ ثورة حقيقيّة في آداب ما بعد الاستعمار، فللكتاب مفاهيمه الخاصّة ومصطلحاته التي بهما يبحث في الاختلالات الجوهريّة بين الشّرق والغرب، وتشكّل النّظرة الاستعلائيّة للغرب في مقابل الشّرق، بل ويبحث في المخططات السّياسيّة الغربيّة وحتى في الأعمال الأسطوريّة والإبداعيّة التي كرّست هذه النّظرة الاستعلائيّة وعملت على تمريرها فكانت النّقطة الرّئيسيّة التي عمل "الاستشراق" على إظهارها هو خلق الوعي المضاد من خلال تفكيك هذه السّرديات الأوروبيّة، وكشف نظرتها الاستعلائيّة السّافرة.[10] هذه الأفكار وغيرها احتلت صوتا متميزا في سمفونيّة الأصوات المناهضة للاستعمار فشكّلت اللّبِنات الأولى لميلاد وعي مضاد، وقف في وجه هذا الجموح الغربي وقاومه بكل أشكاله، ليترسّم بذلك ميلاد هذا الحقل المعرفي ــ نقد الخطاب الاستعماري ــ مع

جماعة من المفكرين وضعوا أساساته واختطوا طريقه، ليعرف فيما بعد باسم: "دراسات ما بعد الاستعمار".

3. خطاب ما بعد الاستعمار من إشكاليّة ضبط المفهوم إلى عوائق التّطبيق:

يشكل مصطلح ما بعد الكولونياليّة/ ما بعد الاستعمار إشكاليّة حقيقيّة عند النّقاد الدّارسين، ليس فقط عند العرب وإنّما يشمل التّنظير العالمي والغربي بصفة عامة، هذا إذا أضفنا إليه إشكاليّة التّرجمة والتّلقي للمصطلح في الضّفة العربيّة؛ فهناك دراسات أو دارسون يفضلون نعت هذه النّظريّة بخطاب "ما بعد الكولونياليّة" في حين يفضل البعض الآخر نعتها بـ: "خطاب ما بعد الاستعمار" (..) فالمسمى الأوّل يحيل إلى رغبة بعض الدّارسين بالإبقاء على الكولونياليّة تمييزا لها، إذ يعدونها نظريّة أدبيّة نقديّة كما جاءت في لغتها الأصليّة، في حين أن من يفضلون "ما بعد الاستعمار" يستندون إلى كون هذه الكلمة هي التّرجمة العربيّة المقابلة لكلمة "كولونياليّة"؛ لهذا ينقسم النّقاد إلى فريقين في استعمال هذا المصطلح في كتاباتهم فمثلا يستعمل كل من : نبيل راغب، جابر عصفور، ثائر ديب، صبحي حديدي مصطلح "ما بعد الكولونياليّة" في حين يفضل سعد البازعي، خيري دومة، "يحيى بن الوليد استعمال مصطلح "ما بعد الاستعمار"[11] انطلاقا من هذا الجدل تجد هذه الدّراسة مشروعيّة استعمال المصطلحين لأنّه متردد في كل الكتابات العربيّة التي تعنى بهذه الدّراسات.

إنّ الدّخول إلى السّاحة المفهوميّة لمصطلح ما بعد الاستعمار غير مأمونة العواقب، فقد لا نجانب الصّواب إن قلنا أنّه من بين المفاهيم النّقديّة التي تمنعت عن أُطر التّعريف والتّحديد، ولا عجب في ذلك، إذ هو من أبرز مفرزات نظريات ما بعد الحداثة التي من ميزتها اللاتعيين، فرغم كل محاولات القبض على تعريف جامع لهذه الدّراسات إلاّ ويكون مصيرها الفشل والقصور لدرجة أنّه أصبح هاجسا لكل نقاد ما بعد الاستعمار، ولا يعني هذا التّصريح أنّنا لن نخوض مغامرة لغويّة وفلسفيّة ونقديّة مع هذا المفهوم الذي يتعذر تحديده تحديدا يسبر جميع جوانبه. أوّل ما نستهل به رحلة المغامرة مع هذا المفهوم هو الوقوف على ما قدمه النّاقد "دوغلاس روبنسون" في كتابه "التّرجمة والإمبراطوريّة" من جهود أحصى فيها وعدّد تلك التّعاريف حيث انتهى به المطاف إلى تحديد ثلاثة حدود رئيسيّة لدراسات ما بعد الاستعمار متتفاوتة

الأطر الزّمانيّة والمكانيّة حيث يقول: أوّلا–النّظريّة ما بعد الكولونياليّة هي دراسة مستعمرات أوروبا السّابقة منذ استقلالها؛ أي كيف استجابت لإرث الكولونياليّة الثّقافي، أو تكيّفت معه، أو قاومته أو تغلّبت عليه خلال الاستقلال. وهنا تشير الصّفة ما بعد الكولونياليّة إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونياليّة. والفترة التّاريخيّة التي تغطيها هي تقريباً النّصف الثّاني من القرن العشرين.

ثانيا–هي دراسة مستعمرات أوروبا السّابقة منذ استعمارها؛ أي الكيفيّة التي استجابت بها لإرث الكولونياليّة الثّقافي، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه منذ بداية الكولونياليّة. وهنا تشير الصّفة ما بعد الكولونياليّة إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونياليّة. والفترة التّاريخيّة التي تغطيها هي تقريباً الفترة الحديثة، وتكون بدءاً من القرن السّادس عشر.

ثالثًا–دراسة جميع الثّقافات–المجتمعات؛ البلدان–الأمم من حيث علاقات القوّة التي تربطها بسواها من الثّقافات؛ المجتمعات؛ البلدان؛ الأمم؛ أي الكيفيّة التي أخضعت بها الثّقافاتُ الفاتحة الثّقافاتِ المفتوحةَ لمشيئتها؛ والكيفيّة التي استجابت بها الثّقافات المفتوحة لذلك القَسْر، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه. وهنا تشير الصّفة ما بعد الكولونياليّة إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السّياسيّة والثّقافيّة. أمّا الفترة التّاريخيّة التي تغطيها فهي التّاريخ كلّه"[12].بغض النّظر عما ورد في التّعريفين الأوّل والثّاني فإنّ الثّالث يقرأ التّاريخ الإنساني كلّه من وجهة نظر كولونياليّة، فهو موضوع أغزر مادة وأعمق مدى، وهو غير دقيق لأنّ دراسات ما بعد الكولونياليّة انبثقت مع الاستعمار الأوروبي كونه كان أشد عنفا وتأثيرا من أي حركة استعماريّة سابقة في التّاريخ الإنساني كالامبراطوريّة الرّومانيّة، والعثمانيّة والمغوليّة، وهو الذي عمل على تغيير سطح الكرة الأرضيّة وأعاد بناء اقتصاديات تلك البلدان المستعمرة وأدخلها في علاقات معقدة جدا، فمن غير المنطقي أن نعمم هذه النّظريّة على دراسة التّاريخ كلّه منذ عصور متقدّمة فهو أمر غاية في الصّعوبة من ناحيّة الإحاطة إضافة إلى أنّ نظريّة ما بعد الكولونياليّة نشأت في كنف الاستعمار الأوروبي الحديث. أمّا التّعريف الأوّل فنحن نستبعده كونه ينطلق من فترة ما بعد الاستقلال لفهم المشكلات المنبثقة عن تصفيّة الاستعمار، وهذا في نظرنا لا

يستقيم كونه يغفل فترة مهمّة هي الأساس في خلق مشاكل دول ما بعد الاستقلال، وهي الفترة الاستعماريّة وجميع الآليات التي استعملتها في إخضاع وتشتيت تلك الشّعوب. يبقى التّعريف الثّاني–في نظرنا–الأقرب إلى الصّواب وأكثرهما دقّة في توصيف دراسات ما بعد الاستعمار وهو ما يتشارك فيه مجموعة كبيرة من نقاد دراسات ما بعد الكولونياليّة كونه يجمع بين مرحلتين، الكولونياليّة وما يليها، ويركّز على طرفي الصّراع المستعمِر والمستعمَر على السّواء، فهو يعيد مساءلة مناطق عتمة من التّواريخ الاستعماريّة، كاشفا عن نواياها وتوسعاتها وسقف طموحاتها الاستعماريّة كما يحلّل خطاباتها الكولونياليّة المغلّفة بدعاوي الحضارة والمدنيّة والتّبشير، والمبطّنة بنوايا وطموحات اقتصاديّة وثقافيّة كالبحث عن المواد الخام والأسواق الخارجيّة وغيرها ويربط آثار ذلك مع المشكلات النّاجمة في دولة ما بعد الاستقلال، وهو التّوصيف الذي يقدمه "بيل أشكروفت" لما يجعل مصطلح ما بعد الاستعمار، يغطي كل الثّقافات التي تأثرت بالعمليّة الإمبرياليّة من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي؛ أي يهتم بالعالم كما كان خلال الفترة الإمبرياليّة الأوروبيّة الحديثة وما بعدها وتأثير ذلك على الآداب المعاصرة"[13]؛ أي أنّ مصطلح ما بعد الاستعمار يحيل على الفترة الاستعماريّة لذا نجد أنّ كل النّظريات التي أنتجت في هذه الفترة المتوترة تعد جزءا من رؤيّة ما بعد الاستعمار لهذا فإنّ "بيل أشكروفت" يرى أنّ "دراسات باختين عن الرّواية ينظر إليها على أنّها جزء من رؤيّة ما بعد الاستعمار ولم لا إذا كانت الرّواية – من وجهة نظر باختين– نوعا ينهض على تعدديّة الأصوات والخيال الدّيالوجي والتّهجين من أنواع أدبيّة مختلفة، أليست هذه كلّها مصطلحات قريبة من مصطلحات ما بعد الاستعمار؟ يتساءل "بيل أشكروفت" تساؤلا تقريريا باعتبار باختين أحد المثقفين الدّوليين المهاجرين شأن مثقفي ما بعد الاستعمار[14]. أمّا النّاقدة "آنيا لومبا" فنرى أن توصيفها لحدود "ما بعد الاستعمار" كان أكثر رصانة ودقة فقد أقرت بأنّه موضوع جدل مستمر، فهي ترى أنّ العالم بأسره ما بعد استعماري؛ لأنّ عصر الاستعمار قد انتهى فإذا ما كانت أشكال جور الحكم الاستعماري لم تمح وتزول بعد فمن السّابق لآوانه إعلان زوال الاستعمار هذا يجعل الحكم على بلد ما أنّه انتقل من مرحلة استعماريّة إلى ما بعد استعماريّة أمرا غاية في

الصّعوبة وأمرا مثيرا للجدل فما بعد الاستعمار توحي بوجود نوع جديد من الاستعمار عن طريق استخدام الأساليب غير التّقليديّة وهي الانتقال مثلا من الهيمنة العسكريّة إلى تثبيت أنظمة ما بعد الاستقلال تحت وصاية المستعمر. لهذا – حسب لومبا – من" الأجدى لنا أن نفكر بما بعد الاستعمار ليس على أنّه حرفيا تاليا للاستعمار ودالا عليه، بل بمرونة أكبر، على أنّه الطّعن بالسّيطرة الاستعماريّة وتركات الاستعمار مثل هذا الموقف سيسمح لنا بإدراج سكان عزلهم الاستعمار جغرافيا كالأفارقة والأمركيين، أو سكان من أصول آسيويّة أو كاريبيّة (..) ويسمح لنا أيضا أن ندمج تاريخ المقاومة المناهضة للاستعمار مع مقاومات معاصرة ضد الإمبرياليّة والثّقافة الغربيّة المهيمنة"[15]، إن جعل ما بعد الاستعمار مرادفا للطعن في كل هيمنة إمبرياليّة يمارسها المركز على الأطراف تدخل ضمن مجال اهتماماته وبهذه الطّريقة تقضي "لومبا" على التّحديد الجغرافي لبعض البلدان التي تصنف على أنها ليست ما بعد استعماريّة –وهذه أيضا من المشاكل التي تواجهها هذه النّظريّة – مثل سكان جزر الكاريبي ومستعمرات أخرى. أمّا النّاقد الهندي "هومي بابا" (HomiBhabha) الذي برز اسمه كأستاذ للأدب الأميركي والبريطاني في جامعة "هارفرد" وأحد أقطاب "جماعة التّابع الهنديّة" فقد ناقش هو الآخر العلاقة بين المصطلح والدّلالة الزّمنيّة التي تنطوي عليها (ما) السّابقة لكلمة (الكولونياليّة)، فأغلب الدّراسات تسهب في فصم العلاقة بين مدلول (ما) الذي يتبادر إلى الذّهن مباشرة مبدئيا أنّها معنيّة بالفترة التي تلت الاستعمار، في حين أنّ الكثيرين يرون أنّ (ما) هي دالة استمراريّة تضلّل ما قبل الاستعمار إلى ما تلاه. إنّ (ما) كما يشير "هومي بهابها"، تحيل إلى أفق مفتوح من الممارسات والتّحولات،" والما بعد ليس أفقا جديدا ولا مغادرة للماضي(..) ذلك أنّ في الما بعد ضربا من الإحساس بفقدان الاتجاه أو اضطراب الوجهة، حركة استكشاف قلقة"[16]. فالاستعمار الذي شكل واقع الشّعوب قد وضع في التّربة المستعمرة عدداً من البذور التي يمكن أن تُنبت توجهات وأساليب ومواقف متعددة، وهو أيضا ما يشير إليه صاحب "معجم الدّراسات الثّقافيّة" "كريس بركر"، حين أقر بأنّ الدّراسات الثّقافيّة تحدد خطاب الاستعمار وما بعد الاستعمار كوجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما البتة وأنّ مفهوم ما بعد الاستعمار يشير إلى العالم أثناء وبعد

الاستعمار الأوروبي. وعلى هذا النّحو تدرس نظريّة ما بعد الاستعمار الحالة الخطابيّة لما بعد الاستعماريّة. فمقاومة الاستعمار ومحاولة ملاحقة كشف آثاره السّلبيّة والتّخلص منها، ما زالتّ مستمرة إلى الآن، فالاستعمار عمل على ربط الدّول المستعمَرة بمركزه من خلال حركة ديناميكيّة، تقوم على التّبعيّة الفكريّة والثّقافيّة والاقتصاديّة، والتي أوجدت تشوهات ثقافيّة طالت الأنا والذّات والثّقافة واللغة.

كما نجد تبن لهذا الفهم ووعي بأبعاد هذا المصطلح في الضّفة العربيّة، فرغم ما بدا عليه من قلق لا سيما في عمليّة الفصل بين الدّراسات الكولونياليّة والتي تعنى بمرحلة زمنيّة سابقة تعود إلى نشوء الاستعمار وبين خطاب ما بعد الكولونياليّة الذي كما ذكرنا سلفا بأنّه مفهوم شمولي –كما يرى ذلك أيضا النّاقد رامي أبو شهاب – يشمل الكتابة الكولونياليّة؛ أي خطاب الغرب حول الآخر وحول ذاته بما يمثله من استراتيجيات ذات نزعات استعلائيّة عرقيّة عنصريّة تختزل الآخر عبر تمثيلات محدّدة تبرر وتسهل عمليّة الاستعمار، وما يتوجّب ذلك من رد خطابي ينقض هذه الخطابات؛ أي كتابات الشّعوب التي خضعت للاستعمار[17] وعيا منها بطبيعة العلاقة الجدليّة بين الخطاب اللذين يستحضر كل منهما الآخر فهي ــ كما يرى نبيل راغب – أنّها نظريّة "لا تعنى مجرد تسلسل زمني أحادي الاتجاه؛ أي انتهاء عصر الكولونياليّة ليحل محلّه عصر آخر في أعقابه وإنّما هناك اشتباك جدلي وفكري وثقافي وحضاري ومادي واجتماعي بين الكولونياليّة وما بعدها، يصل إلى توظيف أسلحة الصّراع والمناورة والمخاتلة من جانب الاستعمار الذي لم يعد يقتنع بجدوى السّيطرة العسكريّة والسّياسيّة، بقدر اعتماده الآن على السّيطرة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والفكريّة والحضاريّة".[18] وهو ما يتبناه أيضا صاحبا كتاب "دليل النّاقد الأدبي" "سعد البازعي" و"ميجان الرّويلي" من أنّ الخطاب الاستعماري والنّظريّة ما بعد الاستعماريّة مصطلحان يكملان بعضهما البعض وهما من الحقول التي لم تظهر إلاّ مؤخرا لتنامي الاهتمام بها، حيث يشير المصطلح الأوّل –الخطاب الاستعماري – إلى تحليل ما بلورته الثّقافة الغربيّة في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعماريّة إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكل في مجمله خطابا متداخلا، أمّا المصطلح الثّاني –

النّظريّة ما بعد الاستعماريّة –فيشير إلى نوع آخر من التّحليل ينطلق من فرضيّة أنّ الاستعمار التّقليدي قد انتهى وأنّ مرحلة من الهيمنة .– تسمّى أحيانا المرحلة الإمبرياليّة أو الكولونياليّة – قد حلت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين[19]، أي أنّ المرحلتين متداخلتان والاختلاف يكمن فقط في انتقال الاستعمار التّقليدي إلى مرحلة من استعمال الهيمنة الثّقافيّة والاقتصاديّة أو ما يعرف بالكولونياليّة الجديدة، فتصبح الما بعد هنا مضللة فهي لا تحيلنا على مرحلة جديدة إنّما تحيلنا على استمراريّة الخطاب الاستعماري لكن بطرق مخاتلة عصريّة تستوجب نوعا من الفطنة للتعامل معها وتحليلها قصد كشف النّوايا المبطنة التي تحملها.

من هنا تبرز دراسات ما بعد الاستعمار في نظرنا كمفهوم جامع بين مرحلتين رئيسيتين؛ مرحلة الاستعمار وما بعده، فهما متداخلتان بحيث يصعب فهم مرحلة دون أخرى، وهذا لا يعني قطعا أنّ ما قدّمناه هو المفهوم القار والنّهائي، بل مجرّد مغامرة للقبض على هذا المفهوم الكثيف والشّاسع وهو ما يبقي دراسات ما بعد الاستعمار في رحلة البحث عن التّعريف الشّامل والمناسب، بل لايزال البحث عنه –كما يقول دوغلاس روبنسون نفسه –جاريا، كما أنّ كل تعريف من التّعاريف الثّلاثة يروق لجماعة معينة من الباحثين. ولمّا كان خطاب ما بعد الكولونياليّة بهذه الشّساعة والتّداخل، جاءت أيضًا القضايا التي يناوشها هذا الخطاب ويتصدى للنظر فيها كثيرة ومتنوّعة، منها ما تعلق بتفكيك خطاب الاستعمار، ومنها ما تعلّق بإشكاليّة الهويّة في دول ما بعد الاستعمار والتّصدي أيضا للنظر في مشاكل الهجنة والاختلاف الثّقافي، فقد جاءت هذه الدّراسات لتبديد كل المقولات المتمركزة حول الذّات الأوروبيّة التي تدّعي الكونيّة وتأبى النّظر في الاختلاف العرقي كمجال يفتح الباب أمام التّنوع والتّبادل الثّقافي الذي يثري ثقافة الجنس البشري ككل، وقد حدد "دوغلاس روبنسون" بعض القضايا التي هي من صميم اهتمام هذه الدّراسات، فهي تطرح أسئلة من قَبِيل:" كيف أثرت تجربة الاستعمار على هؤلاء الذين استعمروا من ناحيّة، وأولئك الذين قاموا بالاستعمار من ناحيّة أخرى؟ كيف تمكنت القوى الاستعماريّة من التّحكم في هذه المساحة الواسعة من العالم غير الغربي؟ ما الآثار التي تركها التّعليم الاستعماري والعلم والتّكنولوجيا الاستعماريّة في مجتمعات ما بعد الاستعمار؟، وكيف

أثرت النّزعة الاستعماريّة؟ كيف أثر التّعليم الاستعماري واللغة المستعمرة على ثقافة المستعمرات وهويتها؟ كيف أدى العلم الغربي والتّكنولوجيا والطّب الغربي إلى الهيمنة على أنظمة المعرفة التي كانت قائمة؟ ما أشكال الهويّة ما بعد الاستعماريّة التي ظهرت بعد رحيل المستعمر؟ إلى أي مدى كان التّشكيل بعيدا عن التّأثير الاستعماري ممكنا؟ هل تركزت الصّياغات الغربيّة لما بعد الاستعمار على فكرة التّهجين أكثر ممّا تركزت على الوقائع الفعليّة؟، أو نستطيع إجمالها في تحليل الكيفيّة التي أخضعت بها الثّقافات الغازيّة الثّقافات المحليّة لإرادتها ثم دراسة الصّور والكيفيّة التي استجابت بها الدّول لتلك الدّول لإرث الكولونياليّة. هي –إذا –بعض الأسئلة الرّئيسة التي تواجه نقاد ما بعد الاستعمار، وليس هذه فقط فهي تتبدل وتتجدد تبعا لتغيرات أشكال خطاب الاستعمار؛ فالاستعمار الحديث أو ما يعرف بالكولونياليّة الجديدة متغاير في استراتيجياته عن القديم؛ لذا فإنّ الأسئلة والقضايا التي يثيرها تتجدد باستمرار وهذا مكن الصّعوبة في تحديد تعريف شامل لدراسات ما بعد الكولونياليّة، لهذا وجب أن يكون أسلوب تحليل هذه الدّراسات يظهر بشكل متزايد طبيعة القوة المتوارثة وأثرها وكذا تأثيراتها المستمرة على الثّقافة العالميّة والسّياسة الحديثة.

إنّ المسائل السّياسيّة التي عادة ما يتم تناولها من وجهات نظر تتعلق بعلاقات الدّولة القوميّة والعرق والطّبقة والاقتصاد والجندر، تتضح بصورة أكبر حينما نتأملها في سياق علاقاتها بالماضي الكولونيالي"[20] فالخطاب الكولونيالي؛ دائما ما يرتبط بمفهوم إرادة القوة التي تحدث عنها الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" التي تعمل المركزيّة الغربيّة بتمريره عبر وسائط سياسيّة وثقافيّة في لا وعي الجماهير وهي تتطلب نوعا من اليقظة في التّعامل معها وتفكيك مركزيتها ذلك ما تطمح إليه دراسات ما بعد الكولونياليّة. رغم المهام النّبيلة التي تولي لها دراسات ما بعد الاستعمار الاهتمام وتتصدى لها بالنّقد والتّحليل، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الدّراسين والنّقاد من تسجيل بعض الملاحظات التي وجب على هذه الدّراسات إعادة النّظر فيها من جديد، أو وضع آليات جديدة تكون أكثر حداثة وملاءمة، وهذا ليس بدعا من أنّ كل نظريّة لها بعض المزالق والهنات التي وجب تصحيحها لتكون أكثر نجاعة وفعاليّة، ولعل أبرز الذين وجهوا نقدا حصيفا لهذه الدّراسات هم نقاد ما بعد الاستعمار أنفسهم ،من بينهم

الفيلسوف الهندي "إعجاز أحمد" والنّاقدة "آنيا لومبا" وبعض المقتطفات التي جمعها "بيل أشكروفت" ونقاد آخرون وقد توزعت هذه النّقودات بين من اختصت بطبيعة المنهج الذي تستند إليها هذه الدّراسات، وبين من اختصت بحدود هذا الحقل، وجاء البعض الآخر موزعا بين طبيعة التّسميّة في حد ذاتها وما بين آليات المقاومة للهيمنة الاستعماريّة الغربيّة، لذا جمعنا ذلك النّقد الموجه في النّقاط التّاليّة:

أوّلا–نظريّة "ما بعد الاستعمار" هي في الأصل جاءت مهاجرة من أنحاء المستعمرات وتمركزت في أوروبا وأمريكا وهذا التّمركز أعطاها وضعيّة قلقة تكاد تقف على شفا الخيانة، لكنّها أعطاها بالمقابل زخما نظريا استمدته بالتّفاعل مع أبرز الأفكار التي طرحتها مدارس الفكر الأوروبي الحديث.[21]

ثانيا–أنّ هذه الطّريقة في التّسميّة في حد ذاتها طريقة أوروبيّة في الأساس؛ ذلك أنّ هذه التّسميّة تعني ضمنا أنّ التّجربة الاستعماريّة هي الحقيقة الأهم بالنّسبة لهذه البلدان[22]؛ بمعنى أن تربط تاريخ الدّول المستعمَرة بالدّول المستعمِرة فلا يُقرأ تاريخها إلاّ في تبعيته للأوروبي وهو نوع آخر من الهيمنة الغير مباشرة.

ثالثًا–مصطلح "ما بعد الاستعمار" مصطلح ملتبس في حد ذاته؛ لأنّه يرسم حدودا تحكيميّة لا مبرر لها في الكثير من الأحيان ومثل ذلك أن يستبعد كتاب من جنوب إفريقيا ـ نادين جورديمر ــ مثلا لا لشيء إلا لأنهم من البيض، رغم أنّ أعمالهم قد تحتج بقوة على سياسة الفصل العنصري، وهو تقريبا نفس الشّيء يحدث مع بعض الكتاب الهنود وكتاب من شمال إفريقيا إلاّ لأنّهم يكتبون بالفرنسيّة أو الإنكليزيّة، وقد يحدث أن تتبنى المراكز الغربيّة هذه الشّخصيات المبعدة خصوصا إذا ما هاجروا إليها وهاجموا حكوماتهم المستبدة والقوميّة، وهو ما يشير إليه "إعجاز أحمد" حين يرى أن الكتاب الذين يكتبون بالإنكليزيّة يقدَّرون تقديرا فوق العادة، انظر مثلا إلى ما كُتب عن رواية "أطفال منتصف الليل" لـ: "سلمان رشدي" في الصّحف الأمريكيّة الكبرى بالبند العرض: "قارة تجد صوتها" يتساءل "إعجاز أحمد" بكثير من الدّهشة وكأن القارة الآسيويّة لم تجد صوتها إلاّ مع "سلمان رشدي"، وهو نفس الأمر نجده مع "إدوارد سعيد" حين وصفه "ريتشارد بويرير" بأن فضل "سعيد" على الفلسطينيين أنّهم لن يضيعوا في التّاريخ. إنّه كما يقول ــ إعجاز أحمد ــ عالم مقلوب رأسا على عقب[23]؛

وهو نفسه ما يحدث في شمال إفريقيا حين ينظر إلى كتابات "آسيا جبار" و"الطّاهر بن جلون" و"محمّد ديب" كنموذج للكتابة العربيّة ما بعد الاستعماريّة، في حين قد تقصى شخصيات أدبيّة أكثر حجما وأغزر كتابة، لهذا فالسّؤال الذي يجب أن تعيد فيه هذه الدّراسات النّظر مثلا: ما الذي يقرّر أنّك من أدباء ما بعد الاستعمار؟ هل هو مكان مولدك؟ أم السّنوات التي عشت بالخارج؟ أهي اللغة التي تكتب بها؟ أو الجهة التي تنتمي إليها؟ فالصّفة الغالبة على كتابات هذه النّظريّة كما تقول "آنيا لومبا" أنّها في الغالب "تكتب بطريقة مشوشة موسومة بالصّراعات ما بين النّقاد الذين يتهمون بعضهم البعض بالاشتراك مع البنى الفكريّة الاستعماريّة، ومع أنذ أهدافها المعلنة هي السّماح لأصوات الشّعوب التي كانت مستعمرة ذات مرة أن تسمع أصواتها إلاّ أنّها في الحقيقة تغلف أصواتها"[24] وهو المشكل الذي طرح حول مقدرة هذه النّخب على تمثيل أصوات التّابعين وهل استطاعت حقيقة أن تسمع هذا الصّوت.

رابعا–تضاف إلى ما ذكر مشكلة الامتداد الجغرافي والتّاريخي الذي يجعل تقديم ملخّصات تحكم هذه الحركة الاستعماريّة أمرا مستحيلا وعصيا على التّنظير؛ لأنّ ذلك سينفي أي تعميم نقوم به حول طبيعة الاستعمار، فكل باحث للاستعمار حسب انتمائه المعرفي وموقعه الجغرافي والمؤسّساتي وهويته، يحتمل أن يتوصل إلى مجموعة مختلفة من الأمثلة والتّأكيدات ووجهات النّظر حول المسألة، لكنّ هذه المشكلة حسب "آنيا لومبا" يمكن تجاوزها إذا أدخلنا ضرورة الوعي بالاختلاف التّاريخي والجغرافي في كتابة النّظريّة انطلاقا من أن التّنوع موجود شريطة أن لا نمدد المحلي إلى درجة العالمي[25] وهو الحفاظ على الخصوصيّة القوميّة لبعض الأفكار التي تتوافق في بيئة دون أخرى؛ لأن اقتلاعها من أماكن محددة يصبح من الصّعوبة الوصول إلى الأهداف الحقيقيّة لهذه النّظريّة .

خامسا–تمثل أيضا مناهج المقاربة عند ناقد ما بعد الاستعمار جدلا واسعا حول إذا ما كانت الماركسيّة والتّفكيكيّة متناغمتين فلسفيا وهو نفس النّقد الذي قدّم لإدوارد سعيد في "الاستشراق" في محاولة الجمع بين طرق "فوكو" و"دريدا" والتّزام "غرامشي" بالتّغيير الاجتماعي، فهذا الأخير مشروعه يطمح لكشف قوة الشّعب المستعمَر وتقدير

فوكوي أكبر للطرق التي يضع بها الأفراد في البنى القمعيّة، إذ يشبه بعض النّقاد محاولة الجمع بين تبصرات الماركسيّة وما بعد الحداثة حيث يشبهها "أوهانلون" و"وشبروك" بمحاولة ركوب حصانين في نفس الوقت، لكن هذا لا ينفي أنّ دراسات ما بعد الاستعمار تقتضي مرونة نظريّة وتجديدا[26].

أخيرا–حتى في المعنى الزّمني لا يمكننا استعمال كلمة ما بعد الاستعمار بأي معنى وحيد، لقد استغرق تفكيك الاستعمار الرّسمي ثلاثة قرون، وبالإشارة إلى هذه الحقيقة تتسأل "إيلا شوهات"[27] متى تبدأ بالضّبط ما بعد الاستعمار؟ كما تطرح إشكاليّة أخرى تتعلق بإمكانيّة الفصل بين الخطاب الاستعماري وخطاب ما بعد الاستعمار بوصف هذا الأخير حقلا نظريا قائما على الخطاب الكولونيالي وهو أمر كنا قد أبطلناه سابقا لما تطرقنا إلى تبني تعريف شامل لهذه الدّراسات وقلنا باستحالة الفصل بينهما.

خاتمة: رغم هذا النّقد الموجه لهذه الدّراسات والذي كان رصينا ودقيقا في كثير من أجزائه إلاّ أن ذلك لا يلغي الدّور المحوري لهذه الدّراسات التي كشفت تمفصلات الخطاب المركزي الأوروبي وكشفت عن بواطنه الاستعماريّة الخفيّة، ويبقى هذا النّقد هو السّبيل في أن تعيد هذه الدّراسات النّظر في هذه المسائل والمنزلقات التي لا يسلم أي عمل يروم التّنظير منها، إضافة إلى هذا، فإنّ هذه الدّراسات حديثة زمنيا على ساحة الدّراسات الثّقافيّة المعاصرة فقد بدأت في التّبلور منذ ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي فقط، هذا ما يجعل بداياتها دوما تكون حييّة لدنيّة تحوي فجاجة البداية، فهي لحد الآن لم تستقر ولم يصل بها المنظرون إلى تعريف نهائي ودقيق واضح المعالم، كما أنّ القضايا التي تولي النّظر فيها كثيرة ومتنوعة وكل هذا يتأتي للصبغة الكونيّة التي تطمح إليها هذه الدّراسات، وهو في نظرنا أمر غاية في الصّعوبة لاختلاف الإطار التّاريخي والجغرافي للعمليّة الاستعماريّة الأوروبيّة الحديثة وأيضا تباين استجابة الشّعوب لذلك الإرث.[28]

الهوامش:

[1] آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، تر: محمّد عبد الغني غنوم دار الحوار للنشر والطّباعة، ط1، سوريا، 2007، ص: 34.

[2] أحمد عبد الحليم عطيّة، ما بعد الكولونياليّة وما بعد الحداثة، نحن وأزمنة الاستعمار، نقد المباني المعرفيّة للكولونياليّة وما بعد الكولونياليّة، تقديم: محمّد حيدر، الجزء الرّابع المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة، ط1، بيروت، 2018م، ص:176.

[3] روبيرت يونغ، أساطير بيضاء كتابة التّاريخ والغرب، تر: أحمد محمود، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2003م، ص: 55.

[4] أحمد عبد الحليم عطيّة، ما بعد الكولونياليّة وما بعد الحداثة، نحن وأزمنة الاستعمار الجزء الرّابع، تقديم: محمّد حيدر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة، المرجع السّابق، ص: 181.

[5] حازم محفوظ، فلسفة ما بعد الاستعمار بين التّفكيك وإعادة إنتاج السّيطرة، نحن وأزمنة الاستعمار، نقد المباني المعرفيّة للكولونياليّة وما بعد الكولونياليّة، الجزء الرّابع، المرجع السّابق ص: 53.

[6] من أبرز هؤلاء المفكرين نجد على سبيل المثال "جون فرانسوا ليوطار، "وجون بول سارتر" وما قام به "سارتر" مهم للغاية فقد أعلن تأييده للثورة الجزائريّة حيث كتب كتابا بعنوان "عارنا في الجزائر" وقد كشف فيه عن صور من التّعذيب والاضطهاد التي كان يمارسها المستعمر الفرنسي بحق الجزائريين وهو ما يتنافى فعليا مع قيم الثّورة الفرنسيّة التي هي الحريّة، العدل والمساواة. كما أن للثورة الجزائريّة الأثر الكبير في فلسفة سارتر في تحوله من المرحلة الفرديّة العدميّة التي يمثلها "الوجود والعدم" حيث يتجلى فيها النّظرة الاستبعاديّة والعدائيّة للآخر إلى مرحلة جديدة تقربه من الآخر يمثلها "نقد العقل الجدلي". ينظر: أحمد عبد الحليم عطيّة، ما بعد الكولونياليّة وما بعد الحداثة، نحن وأزمنة الاستعمار، الجزء الرّابع، المرجع السّابق، ص: 175.

[7] ينظر: عمر أزراج، مقاربة أوليّة لمساهمة علاقات الاستعمار وما بعد الاستعمار في تشكيل فكر ما بعد الحداثة في فرنسا، مجلة قضايا فكريّة، العدد التّاسع عشر والعشرون 1999م، ص: 471.

[8]Antonio Gramci, The preson notebooks :selections, trans quintinhoare, and Geoffrey Nowell smith, Elecbook, London, 1999 p:131.

[9]ينظر: فرانتز فانون، معذبو الأرض ترجمة: وتقديم: منور، و كلودين شولي، الأنيس سلسلة العلوم الإنسانيّة،(د.ط)، وزارة الثّقافة، الجزائر، 2007م، ص: 09،08،07.

[10] See:Datta G. Sawant , Perspectives on Post-colonial Theory: Said, Spivak and Bhabha , http: // www.researchgate.net.

[11] ينظر: رامي أبو شهاب، الرّسيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونياليّة في النّقد العربي المعاصر بين النّظريّة والتّطبيق، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1، الأردن، 2013م ص: 139.

[12]دوغلاس روبنسون، التّرجمة والإمبراطوريّة، نظريات التّرجمة ما بعد الكولونياليّة، تر: ثائر ديب، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2005م، ص: 28.

[13] ينظر: بيل أشكروفت، جاريث جرفثيز، هيلين تيفين، الإمبراطرويّة ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار النّظريّة والتّطبيق، تر: خيري دومة، أزمنة للنشر والتّوزيع، ط1، الأردن 2005م، ص: 25،26.

[14] ينظر: بيل أشكروفت، الإمبراطرويّة ترد بالكتابة، المرجع السّابق، ص:13.

[15] آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، المرجع السّابق، ص: 27.

[16]هومي بابا، موقع ثقافيّة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة 2004م ص: 41

[17]ينظر: رامي أبو شهاب، الرّسيس والمخاتلة، المرجع السّابق، ص: 149.

[18]نبيل راغب، موسوعة النّظريات الأدبيّة، الشّركة المصريّة العالميّة للنشر، ط1، مصر 2003م، ص: 548.

[19]ينظر: سعد البازعي وميجان الرّويلي، دليل النّاقد الأدبي، المركز الثّقافي العربي، ط3 المغرب، 2002م، ص: 158.

[20]بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونياليّة المفاهيم الرّئيسيّة، تر: أحمد الرّوبي أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، ط1 القاهرة، 2005م، ص: 43.

[21] ينظر: مقدمة المترجم خيري دومة لكتاب: بيل أشكروفت، وآخرون، الإمبراطوريّة ترد بالكتابة، المرجع السّابق، ص: 08.

[22] بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطوريّة ترد بالكتابة، المرجع السّابق، ص: 15.

[23]ينظر: بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطوريّة ترد بالكتابة، المرجع السّابق، ص: 16،17.

[24] آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، المرجع السّابق، ص: 07.

[25] ينظر: آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، المرجع السّابق ص09،12.

[26] ينظر: آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، المرجع السّابق، ص: 250، 251.

[27] آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، المرجع السّابق، ص: 23.